# الفصل الخامس
# الغربة والحنين

جمع العماد صفات رائعة منها : الوفاء والإخلاص والحنين إلى الأوطان والديار والخلان ، فنزح من أصبهان إلى العراق في أول حياته و وسكن بغداد وطاب فيها عيشه ، وأصبحت مسرح قوته ، ومعهد أنسه ولهوه ، وملتقى أصفيائه وأحبائه ، وحينما تربص به الخصوم ، وأصابوه بسهام بغيهم ، خرج منها إلى الشام، وسكن دمشق والألم يعصر قلبه ، وبقي يتنسّم أخبارها ، ويتعقب أنباءها ويتشوق إليها ، ويحنُّ إلى ربوعها[1] :

فأنا اليومَ بالشّآمِ وَحِيدٌ ... لِسَنا البارِقِ العراقيِّ شَائِمْ

لا وَدُودٌ عَلى وَفَائي مُقيمٌ ... لا وفيّ بِشرْطِ وُدِّيَ قَائِمْ

أبداً بينَ هِمّتي وزماني ... في اقتِرَاحي وفي اطّرَاحي ملاحِمْ

مُبْتّغى قلبي المشوقِ ببغدا ... دَ وجسمي نائي المحلَّ بجاسِمْ

ليتَ شِعْرِي مَتى يُبشّرُ عنّي ... أصدقائي فيها بأني قادِمْ

عاش العماد في سعة من العيش ورغده ، ولما توفي نور الدين 569هـ خبا نجمه ، وبدأ حساده يضايقونه ، قال [2]: "، ولما توفي نور الدين اختل أمري واعتلّ سري ، وفاض دمعي و وغاض بحري ، وعلت حسادي ، وبلغ مرادهم أضدادي " ،

(1) الديوان ص 367 .
(2) سنا البرق الشامي : 1 : 159 .



obeikan.com

وعـادت غربتـه إلى سـابق عهـدها ، وقـد عـبر عنهـا في مطلـع قصـيدته الـتي رثـاه بها[1] :

ثُـــرى يَجْتَمِـــعُ الشَّمْـــلُ ؟ ثُـــرى يَتَّفـــِقُ الوَصْـــلُ ؟
ثُـــرى الْعَيْـــش الّـــذي مَـــرَّ مَريـــراً بَعْـــدَهُمْ يَحْلـــو ؟
ثُـــرى مِـــنْ شاغِـــلِ الهَـــمِّ فُـــؤادي الْمُبْتَلـــي يَخْـــلو؟
ثُـــرى يَرْجِـــعُ مِـــنْ طِيـــبِ رَمـــاني ذلِـــكَ الفَصْـــلُ
تَعَرَّبْـــتُ فَـــلا دارٌ ولا جَـــارٌ ولا أَهْـــلُ
أَخِـــلائيَ بِبَغـــدادَ وَهَـــلْ لـــي غَيْـــركمْ خِـــلُّ ؟
سَقـــى مَغْناكُـــمُ دَمْعـــي إذا مـــا احْتَـــبَسَ الْوَبْـــلُ
عَذابـــي فيكُـــمُ عَـــذْبٌ وقَتْلـــي لَكُـــمُ حِـــلُّ
وَهـــذا الـــدَّمْعُ قَـــدْ أَعْـــرَبَ عَـــنْ شَـــوْقَي فَاسْتَمَلُـــوا
وَهـــذا الـــدَّيْنُ قَـــدْ حَـــلَّ فَلِـــمْ ذا الوَعْـــدُ وَالمَطْـــلُ
أَعِيـــدُوني مِـــنَ الهَجْـــرِ فَهِجْرانُكُـــمُ قَتْـــلُ

والقصيدة تتألف من خمسين بيتًا يشكو فيها بلغة سهلة ورشيقة – وقد ثقلت عليه وطأة الوحدة – الشجي الذي يعانيه ، والحزن الذي يلاقيه إثر تفرق الأحباب والخلان وبعدهم عنه .

(1) الديوان ص 334 -335 .

غادر الشاعر دمشق ، وفي النفس حسرة ، وفي القلب لوعة ، وفي العين دمعة وهنا استدعت وظيفة الاغتراب والابتعاد عن الأهل والأصحاب من وقت لآخر، وهو في طريقه إلى الأسكندرية نظم هذه المقطوعة[1] :

يَوْمـاً بجـيّ وَيَوْمَـاً في دمشـق وبالـ ... فسـطاط يَوْمَـا وَيَوْمَـاً بـالعِرَاقين[2]

كـأنّ حِسْمِي وَقلبي الصبّ مَا حُلِقَا ... إلاّ ليَقْتَسِـمَا بالشّـوْقِ وَالـبين

وكانت رحلاته تدوم أشهرًا ، ويستبد به الشوق والحنين ، وتنفجر قريحته شعرًا وجدانيا محببا ، من ذلك قصيدة من ثلاثة وثمانين بيتًا في مصر ، أتشوق فيها الجماعة بالشام ، وأتندم على مفارقتهم ، وقال في مقدمتها[3] :

أأحـبَّتي إنْ غِبْـتُ عَـنْكُمْ فـالهوَى ... دَانٍ لقلـبٍ بالغَـرَامِ مُـوَلَّهِ

أُنهـي الـيكُمْ أنَّ صَـبْري مُنْتَـئ ... بَـلْ مُنْتَـهٍ وَالشَّـوْقُ لـيسَ بِمُنْتَـهِ

أمَـا عُقُـودُ مَـدَّامِعي فلقَـدْ وَهَـتْ ... وَأَبَـتْ عُقُـودُ الـوُدِّ مـني أنْ تَهـي

وَلقَـدْ دُهِيـتُ بِبَيْـنِكُمْ فاشْـتَقْتُكُمْ ... يـا مَـنْ لمشْـتَاقٍ بِبَيْنِكِـمْ دُهـي

مَازِلْـتُ عنـدَكُمُ بـأَرْحَى عيشَـةٍ ... وَبَقَيْـتُ بَعْدَكُـمُ بعـيشٍ أكْـرَهِ

لقد عبر أصدق تعبير عن مشاعره وحبه تجاه البلدة التي تعلق بحبها ، وترك فيها أحبابه يأملون ، جوعه للتمتع بمجالسته ، والتزود من ينابيع علمه ، وأهله ينتظرون عودته كي يلتئم شملهم كالعقد النظيم ، قال في القصيدة نفسها[4] :

في شَـوْقكُمْ أبـدَ الزَّمَـانِ تَفَكّـرِي ... وَبِـذِكْرِكمْ عنـدَ الكـرامِ تَفَكهـي

لَـوْ قيلَ لي مَا تَشْتَهي مِنْ هذهِ الدُّ ... نيـا؟ لقلـت: سواكـم لا أشـتهي

(1) الديوان ص 420 .
(2) جي : مدينة قديمة عند أصفهان ( معجم البلدان : 2 : 202 ) .
(3) الديوان ص 447 .
(4) الديوان ص 448 .

كان العماد شديد الوفاء لدمشق ، يحن إليها حنين الفطيم إلى الرضاع ففي إحدى قصائده يبين ويوضح مدى حبه وشوقه إليها وذكر ميادينها الخضر وماؤها العذب ، ومظاهر الطبيعة الزاهية ، والقبة الذهبية ، كما في قوله [1]:

وَمَاجنّـــةُ الخُلْـــدِ إلاّ دِمشـــقٌ ... وفي القلـــبِ شَـــوْقاً إليهـــا سَـــعِيرُ
مَيادِينُهـا الخُضـرِ فَيْـحُ الرِّحَـابِ ... وَسَلَسِـالها العَـذْبُ صَـافٍ نمـيرُ
وفي قبّـــةِ النسْـــرِ لـــي سَـــادَةٌ ... بهـــم للكـــارمِ أفْـــقٌ مُنـــيرُ
وَبَـــابُ الفَـــرَادِيسِ فرْدَوْسُـــها ... وسُـكانُها أحسـنُ الخلـقِ حُـورُ

وكما أحب العماد دمشق ، وحنَّ إليها في أوقات بعده عنها ، فإنه أحب القاهرة وتشوقها ، وتذكر سكانها من الأصدقاء والعلماء ، والخلان الأدباء ، ففي إحدى مقطوعاته أبدى ندمه على فراقهم ، وأسفه على بعدهم ودعا لهم بالعيشة الكريمة ، والصحة المستديمة [2]:

أيـا سـاكني مصـرَ عَفَـا اللّه عَـنْكمُ ... وَعَافـاكُمْ ممـا ألاقيـهِ مِنْكُـمُ
أبيـتُ علـى هِجْـرَانكمْ مُتَنَـدِّماً ... وَمَـنْ ينـأ عَنْكـمْ كيـفَ لا يَتَنَـدّمُ؟
فـإنْ كنـتمُ لم تَعْلَمُـوا مَـا لقيتُـهُ ... مِـن الوَجْـدِ وَالأشْـوَاقِ فـاللّهُ يَعْلَـمُ
بَقَيْـتُمْ وَعِشْـتُمْ سَـالمينَ مِـن الأذى ... وَمُنيـةُ قلـبي أنْ تَعِيشُـوا وَتَسْـلَمُوا

وقوله في فراق بعض الأحباب والأصدقاء[3] :

أأحبَابنَـا مِـنْ بَعْـدِنا كيـفَ أنـتمُ ... فَقَدْ بَانَ صَبْرِي وَالكرَى مُنْذُ بِنْتُمُ؟
ومـا زِلْـتمُ أهـلَ المـوَدّةِ والوَفـا ... ولكنّمـا حَـانَ الزّمـانُ فَخُنْـتُمُ
وإنـي بحـالٍ لسـتُ أذكـرُ بَعْضَـها ... علـى كـلّ حَـالٍ أنـتمُ كيـفَ أنْتُـمُ؟

(1) الديوان ص 187-188 .
(2) الديوان ص 379 .
(3) الديوان ص 379 – 380 .

محـبّكمُ مِـنْ لَوْعـةِ الوَجْـدِ مُشْـتَكٍ وَقَـدْ كنـتمُ تَشْكُوُنّـهُ لـو عَلِمْـتُمُ
أسِـيركمُ العَـاني أمَـا تَطْلُقُونَـهُ فَدَيتكـمُ مَـا ضَرّكـمْ لَـو مَنَنْـتُمُ

واقترح عليه السلطان صلاح الدين عمل أبيات يكتب بها إلى مصر، ليعبر عن مدى شوقه وحبه لها فيقول[1] :

أشْـتَاقكُمْ شَـوْقَ الظّمَـاءِ إلى الحُبـا وأحُـبكمْ حُـبّ النُّفـوسِ حَيَاتَـهَا
عَـنْ غَيْـركمُ نَفْسِـي تُـلازمُ صَـوْمَها وَبِـذِكركمْ أبـدًا تُـديمُ صَلاتَـهَا
مـا فاتهـا حَـظّ الأسَـى لفُـرَاقكمْ إنْ فَاتهـا مَـنْ وَصَـلَكمْ مَـا فَّاتَهَـا
يـا ليـتَ أيامـي التـي قَضَـيْتُها في قُـرْبِكمْ قَـدْ عَـاوَدَتْ أوقاتَـهَا
وَغَـدَتْ عُقُـودُ مَسَـرّتي مجموعـةً لا تسـتطيعُ يـدُ الفـراقِ شَـتَاتهَا
اللّهُ يعلـمُ أنّ عَيْـنِي بَعْـدَكمْ مِـنْ شَـوْقكمْ لم تَسْتَلـذّ سُباتَـهَا
أنـتمُ بمصـرَ ذوو غـنىً مِـنْ طِيبَهـا أدُّوا بِـذِكركمْ الفَقِـيرَ زَكاتَـهَا

وتذكر شاعرنا أهل مصر وهو في جلق رغم البعد بينهما ، فالذي يتمناه هو القرب منهم ، فهذا والله كل المنى والأماني ، فنسيمكم له رائحة طيبة وبرقكم له نور مشرق كالضياء ، مصر هي طيب المقام والمكان وحسن النعيم والهنا ، فالنسيم يبلغكم السلام في البعد والمرض ، ولقد عنيت في اشتياقي إليكم فأسالوا الدمع على قلبي ، فإني فقير بوصلكم ، ومن ينال ذلك فقد نال الغنى ، وذلك في قوله :

تَذكـرْتُ في جلـقِ دَارَكـمْ بمصـرَ فيـا بُعْـدَ مَـا بَيْنَنـا
ومَـا أتمنّـى سِـوَى قُـرْبكمْ وذلـك - واللّهِ- كـلّ المُـنى
يَـدلُ نَسـيمَكمْ بالأريـجِ عَلَيكـمْ وَبَرْقكـمْ بالسّـنا
لَكـمْ بالجنـابِ وَطيـبِ المقـامِ وَحُسـنِ النّعيـمِ بمصـرَ الهنَـا

(1) الديوان ص 99 .

فَحثّـــــوا النّســـــيمَ لإبلاغــــــهِ ... سَلامُكـــــمْ في النّــــوى لا وَنَــــى

وَدُلّـــوا عَلـــى الـــدّوْحِ قلــبي فَقــدْ ... عَنَـــاني لأشْــوَاقكمْ مَـــا عَنَـــا

وإنـــي فقـــيرٌ إلـــى وَصْـــلكمْ ... ومَــنْ نَــالَ ذلــكَ نَــالَ الغِنَــى؟[1]

وقوله في الشوق والحنين 563هـ :

وَحُرْمـــةِ الـــوُدّ الـــذي بَيْنَنَـــا ... وَمَالنَـــا مِـــنْ كَـــرَمِ العَهْـــدِ

مـــا نَقَضَــتْ عَهْــدِي لَكــمْ جَفْــوَةً ... ولا أحَالـــــتْ حَالـــــةٌ وُدّي

ولا تَغَـــيّرتُ وَيَـــأْبَى الهـــوَى ... وَذَاكَ في قُـــرْبٍ وفي بُعْـــدِ[2]

ويعبر عن شوقه وحنينه إلى دمشق ، فيقول : إن الذي أبعدني عنكم عدو لدود ، ودهر خؤون ، وحظ عثير ، فبفقدانكم فقدت الحياة ، وسوف ألقاكم يوم القيامة :

نـــأى بـــي عَـــنْكمُ عَـــدوٌّ لَـــدُودٌ ... وَدَهْـــرٌ خَـــؤونٌ وَحَـــظٌّ عَـــثُورُ

فَقَـــدْتُكمُ فَفَقَـــدْتُ الحيـــاةَ ... وَيَـــوْمَ اللّـــقَّاءِ يكـــونُ النّشُـــورُ[3]

فكما أحب شاعرنا دمشق وحن إليها ، فإنه أيضًا أحب مصر وتشوق إليها وحزن حزنًا شديدا على فراق أهلها . وتجلت قدرته في هذا الغرض الشعري [3]، على تصوير مشاعره بحرارة وبصدق عميق ودفين ، وأصالة متأصلة ، حيث تحتوي على رقة وعذوبة ، وتتوغل في ذهن المتلقي وأعماق المستمع بسرعة شديدة .

---

(1) الديوان ص 405 ، وانظر ص 194 – 195 .
(2) الديوان ص 136 .
(3) الديوان ص 186 .
(3) انظر الديوان ص 78 ، 79 ، 105 ، 194 ، 202 ، 203 ، 204 ، 244 ، ، وانظر : ص 62 ، 63 ، 128 ، 129 ، 185 .



obeikan.com